القوة الايجابية في العالم

الإسلام أكثر من مجرد اللغة ووحدة العقيدة

للأستاذ عبد الرحيم السايح

من علماء جامعة الازهر

ان العالم الاسلامي يربض على الثروات المعدنية الهائلة ويتربع على الكنوز الثمينة ، ويملك من الحقول البترولية ، أجداها نفعا ، واكثرها ثراء وسخاء ، واقواها تدفقا ودفعا . ويتبوأ استراتيجية هامة ، ويشغل من خريطة الدنيا حيزا جغرافيا عظيما .

فالاطار الخارجي الاقصى للعالم الاسلامي يصل شمالا حتى أعالى الفولجا غير بعيد عن دائرة العرض 60 درجة شمالا ، ويترامى جنوبا حتى نهاية افريقيا عند الراس على خط عرض 35 درجة جنوبا .

اما شرقا بغرب فنحن مع الاسلام من خط طول 120 درجة شرقا حيث الفلبين الى حوالي 20 درجة غربا ، عند الراس الاخضر ، فهذه شقة تبلغ 95 درجة بالطول ، ونحو 140 درجة بالعرض أي حوالي ربع وثلث محيط الارض على الترتيب ، أو ما يعادل نصف دورة الليل والنهار ، ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالي .

ومحيط العالم المسلم يتحدد اساسا بنصف الكرة الشمالي اولا ، وبنصف الكرة القديم ثانيا ، فالاسلام جنوبي خط الاستواء اطراف أو أصابع ثانوية وهو في العالم الجديد شظايا سديمية متطايرة .

ويمكن أن نعبر عن هذا الامتداد النادر بأكثر من طريقة فنقول : ان الاسلام يمتد في قوس محدد من بكين الى كازان الى بلفراد في الشمال ، أو في قاطع من فرغانة الى غانة — كما كان يقول مؤرخو الاسلام — أو في قاطع آخر من جبل طارق الاطلس الى سنفافورة جبل طارق الهادىء ، أو من مالاجا بالاندلس الى ملقا بالملايو ، الى قبال المورو بالفلبين ، كذلك يمكن أن تحدد قاعدة العالم الاسلامي في الجنوب بمحور يمتد من قبائل السنغال ، حتى قبائل التاجال بالفلبين ، او من غينيا الى غينيا الجديدة ، اما الطول فدونك من الفولجا والدانوب حتى الزمبيزي والليمبوبو .

وتلك أبعاد لا تقل بحال عن نصف مساحة العالم القديم .

فالاسلام دين عالمي أو كوكبي — بلا مراء — رغم ما يدعيه البعض من انه دين جزئي ، أو اقليمي احيانا ، أو من انه دين « افريقي » احيانا اخرى . اذ يوشك الا تكون هناك دولة في عالم اليوم ، لايتمثل الاسلام فيها ولو ببضعة عشرات من الآلاف كما في استراليا وغرب اوربا مثلا .

وبالعالم الاسلامي قابليات بشرية فائقة والمسلمون يمثلون تقريبا 15 ٪ من مجموع سكان هذا الكوكب الذي يبلغ اليوم قرابة 3300 مليون نسمة .

وبعبارة اقرب واوجز ، يمكن ان نقول : ان واحدا من كل ستة اشخاص يدين بالاسلام ومناطق العالم الاسلامي تعد ـ عند الباحثين والدارسين ـ من اقاليم النمو السكاني السريع .

فالعالم الاسلامي يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباسفيكي شرقا ، الى المحيط الاطلسي غربا ، مجتازة جاليات ودولا اسلامية ذوات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ، ومنطقة العالم الاسلامي تتميز بأنها :

* تقع من العالم موقع الحزام من جسم الانسان ؛ بعيدة عن القطبين ، وسالمة من الاعاصير والطوفانات والثلوج والبراكين ، ولها دفء معين يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

* وانها تمتلكمن شواطيء البحار الكبيرة والصغيرة ما يمكنها من الاشراف على عدد كبير من اعظم موانيء العالم ، كما بها من الانهار والمنابع ما يجعلها من اخصب المناطق واكثرها ازدهارا ونماء .

* وان فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من اغناء الحضارة الانسانية وزيادة الامن والرخاء .

* وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها الى اسمى ما قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

* وان التجانسالمذهبي بين سكان العالم الاسلامي يجعل المنطقة في منأى عن الانشقاق الملحوظ في المذاهب الاخرى ، ويقرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلا وتفتحا وتقدما .

وتلك أمور تجعل العالم المسلم قوة ايجابية مرهوبة الجانب ، مخطوبة الود ، يتهيب العدو باسها ، ويخشى سلطانها ، وتجعله ايضا مهيأ للاسلام في بناء الحضارة الانسانية ، واعادة صنع الحياة ، وانقاد البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والاباحية والاستعمار والالحاد .

واذا انتقلنا من الحديث عن الناحية الجغرافية والموقع ، وما لهما من خصائص ومميزات ، وما بهما من كنوز وخيرات ، ومن الحديث عن خصائص العالم الاسلامي التي بز بها غيره ، الى الحديث عن الاسلام نفسه : فاننا نجد انه دين العقيدة الحية الصحيحة التي جاءت وقت بلوغ العقل البشري طور رشده وكماله وتفتقه .

العقيدة التي تقر التوحيد الخالص والتنزيه البالغ ارقى صورة واشكاله ، عقيدة ترفع من قيمة الانسان لانها تصله بالله الواحد الذي لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ولا في افعاله « قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفؤا احد »

ولا تبيح تلك العقيدة الاسلامية للانسان ان يتعلق بالمخلوقات او يدعو ويعبد غير الخالق الذي ابدع وفق حكمته جميع ما يشاهد ويحس او يعترف بوجوده في هذا الكون الفسيح « اذا سألت فاسأل الله، واذا استعنت فاستعن بالله » ، والاسلام من جهة اخرى دين اجتماعي يراعي حاجة الانسانية ومصالحها الحيوية في حدود الحق والفضيلة والشرف وباعتبار هاتين الحقيقتين ـ التوحيد الخالص ، والاجتماعية ـ أمكن للاسلام أن يقيم المجتمع على اسس القيم الاخلاقية العليا ، وان يرضي مطالب الروح والجسد ، حتى ترافقا في اعتدال ، وكونا حقيقة الانسان المهذب والمؤمن الكامل .

وبالجمع بين السمو الروحي والتهذيب الاجتماعي امكن للاسلام ان ينتشر في اركان الدنيا بالعدل والحق والاخلاق وسمو المباديء .

والاسلام وليد العقيدة الرائقة التي تطهر النفس وتذكي القلب وتربي الخلق وتغذي العقل وتوقف الغريزة عند حدها ، وتعطي كل مطمح من مطامح الانسان معناه الذاتي وسيره الطبيعي .

والعقيدة الاسلامية : عقيدة استعلاء من اخص خصائصها : انها تبعث في روح المؤمن بها الاحساس بالعزة من غير كبر ، وروح الثقة في غير اغترار ، وشعور الاطمئنان في غير تواكل .

والعقيدة الاسلامية قوة لا تدانيها قوة في شد الاعصاب وشحن الدماء بالتضحية والفداء وتكران الذات . واثر الايمان بالعقيدة السليمة يبرز بوضوح في الدعوات التي غيرت وجه التاريخ . لذا يعمد اصحاب الدعوات الى اختيار العناصر المشبعة بروح العقيدة ، ويصرفون نظرهم عن الكثرة فهم لا يريدون (الكم) بل يريدون (الكيف) .

ذلك ان العقيدة هي الروح التي تحرك الجسد وتبعث فيه الحياة ، والرعيل الاول من المسلمين كانوا اساتذة الدنيا بقوة عقيدتهم وايمانهم بربهم . وقد لاقوا آلاما شديدة لو صبت على غيرهم لتغير موقفهم؛ ولكن الايمان بالعقيدة حين يخالط قلب المسلم يحيله الى انسان فوق العادة .

فبلال الحبشي ، وعمار بن ياسر ، ومصعب بن عمير ، وصهيب الرومي . ضربوا الرقم القياسي في صلابة العقيدة وصدق النية وقوة الايمان . وهم الذين لم يدرسوا كتب الفلسفة ولم يقراوا علوم اليونان والرومان . ولكنهم درسوا القرءان الكريم وتتلمذوا في مدرسة محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كافة .

وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والمقداد بن الاسود وطارق بن زياد وموسى بن نصير قادوا الدنيا وفتحوا البلاد وهم الذين لم يدرسوا في الكليات ولم يقراوا علوم اليونان والرومان . ولكنهم درسوا القرءان العظيم وتتلمذوا في مدرسة محمد رسول الله عليه السلام .

فالايمان بالعقيدة هو الجذوة المتقدة **والقوة الخلاقة** ، التي تكون النفوس وتشحنها بانبل القيم واسماها ، وتبنيها على الحق والاباء والعزة والكرامة .

والاسلام : دين ومجتمع وحضارة :

دين : لانه عقيدة توحيد وتنزيه لله ـ سبحانه وتعالى ـ تعتقدها القلوب وتدين بها ، وتنطق بها الالسنة في كل صلاة وذكر ، وتتزكى بها النفوس ، فتنجلي عنها كل شدة وبؤس .

ومجتمع : لانه ليس طائفيا ولا عنصريا ، ولا متعصبا ولا جاهلا ، ولا جامدا ولا خامدا ولا يتوخى استعباد جنس لجنس ولا قوما لقوم، ولا طائفة لطائفة، « انما المؤمنون اخوة » . « يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن » .

والفرد في المجتمع الاسلامي جزء من كل يكمله ويكتمل به ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويحميه ويحتمي به، وليس في الاسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد ، لان هاتين المسؤوليتين هما اولى وسائل الاسلام في الاصلاح العام ، والاسلام من ناحية اخرى اعترف بالقيمة الذاتية للافراد باعتبارهم مدينين بوجودهم لله ومسؤولين امامه عن اعمالهم . « كل نفس بما كسبت رهينة » . « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » « ولا تزر وازرة وزر اخرى » ، والاسلام الحنيف حينما جعل الفرد مسؤولا امام الله عن اعماله والمسؤولية تقع عليه وحده الاسلام جعل ذلك ليرفع من قيمة الفرد الذاتية ويصل به الى اعمال الخير والدفع البناء وفي الوقت نفسه الفرد لبنة من لبنات المجتمع المسلم ، وعضو من اعضائه ، يعمل لصالح الجماعة ، والجماعة تسعى لخير الفرد .

والاسلام لا يعترف بالقهرية التي يدمج بها الفرد في المجتمع قسرا ورغما عنه كما في الشيوعية ، لان الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغني عن الفرد ان لم يخدم غرض الدولة او ان لم يتبع طريقة الحزب دون نقاش .

فالاسلام دين اجتماعي يرقى بالمجتمع الى اسمى ما قدر من سلام ورخاء وتعاون وتكافل وتساند وتوادد « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

قال المستشرق الفرنسي (ماسينيون) : « ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد في فكرة المساواة ، وذلك بفرض الزكاة التي يدفعها كل فرد لبيت المال . وهو يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التي تفرض على الحاجات الاولية الضرورية ، ويقف في نفس الوقت الى جانب الملكية الفردية وراس المال التجاري .

وللاسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها ، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام من ماض حافل بالنجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات » .

وقال المؤرخ الانجليزي (توماس كارليل) : « وفي الاسلام صفة اراها اشرف الصفات واعظمها ، وهي المساواة بين الناس ، وهذا يدل على صدق النظر وصواب الراي ، والاسلام لم يقنع بجعل الصدقة سنة محبوبة بل جعلها فرضا على كل مسلم وجعلها قاعدة من قواعد الاسلام » .

وقال العلامة (ليود وروس) : « ولقد وجدت في الاسلام حل المشكلتين اللتين تشغلان العالم طرا ، الاولى قول القرءان « انما المؤمنون اخوة » والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال » .

آراء كوكبة من الباحثين وكبار المستشرقين فيها انصاف واعتراف بقيم الاسلام ، وذلك حينما يكتبون لمرضاة العلم فى ذاته . وحين لا تقتادهم السطحية .

وحضارة : لانه متصل بشؤون الحياة فى الحكم والفكر ، والاسلام قادر بطبيعته الذاتية على مواجهة تطور الازمان واختلاف البيئات والمجتمعات ، وله من القدرة والقوة ما يمكنه من التبلور والتناسق بحيث لا يتوقف ولا يجمد ، ولا يتعارض مع طبائع الامم فى حركتها الداخلة الممتدة عبر العصور .

والاسلام ينظر الى الحياة نظرة كاملة وشاملة ، ويتدخل فى جميع شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالاضافة الى انه دين يهتم بالجانب الروحي من الانسان ويريد منه ان يتحمل الخلافة في الارض بامانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة ورسم وسائل تحقيقها ، واقام موازين الحق والانصاف والعدالة ودعا الى التعاون والتبادل والمودة والالفة .

ويمكن ان نقول بعبارة اوجز : انه ما من شيء يهم الانسانية ويشغل بالها ، ويأخذ قسطا من عنايتها الا وله فى الاسلام هدى وبيان واهتمام .

وما من شيء يلامس حياة الناس او يتعمقها الا وله فى الاسلام عرق ينبض وأصل عريق .

ولقد اكتملت قوة الاسلام بوحدة العقيدة ، وجامعة اللغة العربية ، واشترك المجتمع فى مظاهر العبادات والعادات والتقاليد زيادة على توحيد الاهداف والغايات من الحياة .

ونخلص من كل ما سبق : الى ان **الاسلام دين عالمي** . ولهذه العالمية كان الاسلام وما زال ملائما لجميع الاجناس البشرية ، وقد اثبت منذ ظهوره حتى اليوم انه **الدين الذي يتلاءم مع كل عقل وتفكير ، ويتجاوب مع تطور الزمن .**

وان آداب وتعاليم الاسلام كفيلة بان تجعل العالم الاسلامي فى وضع يسمح له ان ينمي فلسفته الخاصة به ، المتميزة عما عداها والتي تنبع من الفكر الاسلامي النير ، وتستمد عناصر وجودها من كتاب الله القرءان الكريم وسنة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . وذلك دون ان يتبع المجتمع الاسلامي اي شكل من الاشكال التي يعافها الاسلام وتمجها الفطرة الانسانية الصافية .

واذا كان المجتمع الاسلامي ، له من المميزات ما لا يتوفر لغيره ، وله من التعاليم والقيم والآداب ما يسمح له ان تكون له فلسفته الخاصة بوجوده . فهل يمكن لحضارته ان تعود الى اشراقها من جديد فتنقذ الانسانية من هوة الفوضوية وتقشع عنها السحب الداكنة والاعاصير المقلقة ، وتزيل الاصفاد والقيود المحيطة بكل تقدم ، والمعرقلة للنهوض ، وتعيد للعالم الانساني السلام الحقيقي والحق والعدل والنور والامن والاطمئنان ؟ .

ان تعاليم الاسلام الغراء صالحة لكل زمان ومكان؛وفى الاصلاح الاسلامي من كليات وجزئيات ما هو كفيل بقيام مجتمع انساني تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والاخلاص ، ولكن **ذلك رهين برجوع المسلمين الى منابع عزهم** ومجدهم والتمسك بأسس القيم والاخلاق الاسلامية . والعمل بتلك القيم والاسترشاد بالتعاليم الحية النابضة بالسمو ، المليئة بالجذوات المتقدة التي لا يخبو ضوءها قال الدكتور جورج سارطون : « ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والعلمية ـ كما كانوا من قبل ـ اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التي حث الاسلام على الاخذ بها » .

وقال العلامة وامبرى : « ان روح نظام المسلمين هو الدين ، والذي احياهم هو الدين ، والذي يكفل سلامتهم فى المستقبل هو الدين ليس الا » .

ويرى الدكتور فيليب حتي « **ان الشرق الاسلامي هو اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية كما انه فى فجر طور جديد فى حياته السياسية** ، وهو دور يمكن ان نسميه : دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية . ولنا ان نتكهن ان ابناء الثقافة الاسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقسطهم فى خدمة المدنية والانسانية؛ وبما يجعلهم خلفاء جديرين بالميراث الذي تركه لهم اجدادهم » .

والدكتور سميث أستاذ ورئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية أوهايو يرى : « انه لو امكن اثارة التماسك الاسلامي فى سبيل أغراض ايجابية وتكتيل الامم الاسلامية الكثيرة المختلفة فى وحدة حية لامكن أن تصير **هذه الوحدة قوة ايجابية فى العالم** » .

وكلام أولئك الافذاذ من ائمة البحث وكوكبة الاستشراق قد يكون انصافا ولمرضاة العلم فى ذاته بعيدا عن السطحية والاغراض التعصبية .

وقد يكون بمثابة التحذير لاقوام اوربا الحاقدة على الاسلام والمسلمين . ليعرف الاوربيون ان المسلمين اذا اجتمعت كلمتهم فى ظل العمل بالاسلام . كان ذلك خطرا على الاستعمار والاستعباد والظلم .

وعلى اي حال وسواء كان هذا أو ذاك فان العالم العربي والاسلامي لا ينهض الا برسالته التي وكلها اليه رسول الانسانية محمد عليه الصلاة والسلام والايمان بها والاستماتة فى سبيلها ، وهي رسالة مشرقة قوية واضحة لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ، ولا افضل ، ولا ايمن للبشرية منها .

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون فى فتوحاتهم الاولى ، والتي بلغوا بها ذروة ما قدر لهم من سؤدد ومجد وسلطان .